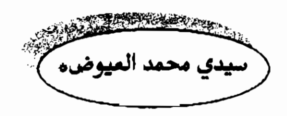



المنظومة
ALMANDUMAH

ملاحظات حول السياسة الضريبية الرومانية في المغرب القديم


سيدي محمد العيوضه*

أصبح المغرب القديم منذ سنة 40 ميلادية وهي السنة التي توافــق مقتــل بطليموس آخر ملك موري خاضعا للسيطرة الرومانية المباشرة، وقد مهدت رومــا لذلك بسياسة اعتمدتها خلال القرن الأول قبل الميلاد، والمتمثلة في إقامة عدد مــن المستوطنات بلغ عددها ثلاثة في المغرب وذلك لأهداف سياســـية وإقتصاديـــة ومن بين الأهداف التي رمت إليها روما مـــن وراء هــذه الســيطرة هــي استغلال موارد هذا الإقليم ، وقد اعتمدت في ذلك مجموعة وسائل، ســـنحاول أن نركز على إحداها وهي المرتبطة بالسياسة الضريبية وذلك من خلال نقيشة وجــدت في مدينة بناصا.

تم العثور على هذه النقيشة أثناء حفريات 1946 بالحي الشمالي ، في مدينــــة بناصا، بسيدي علي بوجنون، التي تبعد بحوالي 17 كلم عن مدينة مشرع بلقصيري وبحوالي 30 كلم عن المحيط الأطلسي، وهي إحدى المستوطنات الثلاث التي أقامـــها القائد الروماني أوكتافيوس بموريطانية الطنجية وتعد إحدى نقـــط الارتكـــاز التـــي اعتمدتها السلطات الرومانية في تدعيم وجودها، وتمهيد سيطرتها على الإقليم.

* ــ أستاذ باحث بالمدرسة العليا للأساتذة – الرباط.

النص الذي بين أيدينا عبارة عن مرسوم أصدره الإمبراطور الروماني كاركلا، وقد علق هذا المرسوم بمدينة بناصا تحت إشراف شخصيتين ساميتين، دومفيرين، كانا يمارسان مهامهما بالمدينة(1) .

[....]

إن الإمبراطور قيصر بن المؤله سيفيروس الورع العربي(2) الأديابيني البارتي الأكبر، البريطاني الأكبر حفيد المؤله ماركوس أنطونيوس الجرماني السرماتي حفيد الحفيد المؤله أنطونيوس الورع، بن حفيد الحفيد المؤله أدريانوس، حفيد أحفاد المؤله تراجان البارتي والمؤله نيرفا – ماركوس أريليوس أنطونينوس الورع أغسطس البارتي الأكبر المنتصر الأكبر على البريطانيين والجرمان، الأب الروحي الحاصل على السلطة التريبونية التاسعة عشر، إمبراطور للمرة الثالثة قنصل للمرة الرابعة، أب الوطن، البر وقنصل، قال" رغبة في مكافأتكم على خدماتكم وعلى إخلاصكم، إنني أعفيكم من كل ديونكم الضريبية سواء كانت نقدا أو عينا حتى تلك التي لازال لم ينظر في أمرها، أمام المحاكم باستثناء تلك التي صدر حكم فيها دون استئناف في شأنها، وأعلن أن فضائلي تنطبق كذلك على قضايا أخرى قدم في شأنها استئناف حتى وإن كانت لازالت لم يحسم فيها.

ولي اليقين أنه مقابل أريحيتي سوف تعملون على خدمتي، وهي خدمات قراكم وولاياتكم والتي استفادت منها الدولة، لا على مستوى الأشخاص الذين بلغوا أعلى المناصب العسكرية والمدنية، ولا على مستوى ما تنتجه غاباتكم من حيوانات وهذه الخدمات يجب أن توضع رهن إشارتي، وأرغب في المستقبل أن تدفعوا ما عليكم من مستحقات سواء نقدية أو عينية بنوع من الحماس، ولقد أجبت بتلقائية عن طلبكم دون أن تقدموا ملتمسا عن ذلك كما أنني وجدت حلا لمشاكلكم وعبرت عن سخائي بكل إجلال.

تؤرخ هذه الوثيقة بين دجنبر 215 م و9 دجنبر 216 إذ من المفترض أن تعود لسنة 216م ، حين كان الإمبراطور يقوم بحملة ضد البارتيين(3) .

توحي القراءة الأولية لهذا النص، أنه إعفاء ضريبي لساكنة معينة، وباعتماد الإعفاءات التي كشفت لنا عنها النصوص، في عدة جهات داخل المجال الخاضع للسيطرة الرومانية، يمكن تصنيف الأمثلة المعروفة في مجموعتين.

إما أن الأمر يتعلق بإعفاء أو تأجيل في أداء الضرائب يمنح لهذه المدينة أو تلك، أو المنطقة برمتها نتيجة لأوضاعها الاقتصادية المتردية التي حتمت هذا الإجراء، أو إعفاء من كل المستحقات الضريبية كما حصل في مصر سنة 202 وسنة 216م(4).

ففي أية مجموعة يمكن تصنيف وثيقة بناصا ؟

تطرح عدة أسئلة حول هذا الإجراء الذي اتخذه كاركلا وهو المعروف بسمعته غير الطيبة(5) بل إن هناك من اعتبر المرسوم كشاهد على السياسة الفاشلة

لكاركلا (6)، إذ تشير النصوص التي اهتمت بتاريخ روما إلى السياسة المالية السيئة لهذا العهد، فروما كانت تعاني من أزمة مالية، وفي مقابل ذلك يقوم الإمبراطور بإعفاء السكان من أداء متأخرات الضرائب، فهذا الإعفاء ليؤكد ازدهار المالية خلال نهاية هذا العهد (7)، وقد اعتبر البعض إفتراضين هما / إما أن كاركلا بعد المجزرة التي قام بها في مصر أراد أن يزيل الرعب من قلوب سكان الأقاليم، أو أن ذلك يدخل في الإحتفال بانتصاراته على البارتيين(8)، كما أن هناك من أدرج سبب تصرف كاركلا كذلك، في محاولة تأكيده رعايته للأقاليم التابعة(9)، ولو أنه لا يمكن أن نستبعد أن تدخل هذه الوثيقة في الرغبة في التخفيف من ثقل الأوضاع الإقتصادية التي أصبحت تعرفها المنطقة المعنية بهذا المرسوم مما سيتعذر معه دفع الضرائب لروما، الأمر الذي استدعى إتخاذ هذا الإجراء، تقودنا هذه النقطة إلى المعنيين بهذا الإعفاء، وما سيقدم مقابل ذلك، كما هو وارد في الوثيقة ؟

قدمت في شأن هذه النقطة الأولى عدة تأويلات، وقد حاول كل دارس أن يجد لها مبررا، ونسجل انقسام هؤلاء بين من حصر هذا الإعفاء في منطقة بناصا وبين من جعله ينسحب على كل الموريطانيتين، وقد ربط البعض بين إقامة قوس النصر بوليلي وهذا الإعفاء الضريبي الذي يهم كل الإقليم، فهل كان ذلك تعبيرا من السكان عن هذا الإجراء الذي اتخذه الإمبراطور ؟

يميل أغلب الباحثين إلى الاعتقاد، أن الأمر يهم الموريطانيتين، خاصة وأنه كان لهذين الإقليمين دور كبير في دعم بنيان الإمبراطورية، فالعبارات الواردة في المرسوم تبدو موجهة إلى سكان هذين الإقليمين، فهم الذين يزودون الدولة بخدام أوفياء في الجيش والمكاتب، نذكر من بينهم ماكران الذي ينحدر من موريطانية القيصرية، ومن ضمن هؤلاء كان الجنود الذين دعم بهم الإمبراطور جيشه في الشرق، إضافة إلى أن غاباتهم تعج بالحيوانات الغريبة(10).

ضم المرسوم إضافة إلى المعنيين بهذا الإعفاء إشارة إلى ما ينتظره الإمبراطور كمقابل لهذا الصنيع، والذي يتخذ شكل هدية يقدمها هؤلاء كعربون عن ولائهم واحترامهم.

لقد كانت هذه النقطة موضوع عدد من الدراسات حول تحديد فصيلة الحيوانات الواردة في هذا المرسوم، والتي اتخذت عبارة الحيوانات الغريبة، فقد اختلفت في شأنها الآراء بين من اعتبرها أسودا ومن تبنى فكرة الفيلة، غير أن منح حيوانات مقابل إعفاء ضريبي له دلالة خاصة، سواء كتعويض على النقص الذي يعرفه الاقتصاد، أو في كونه يعطينا فكرة عن الصيد الجائر الذي عرفته البلاد خلال هذه الفترة، والذي أدى قبل زمن بعيد إلى انقراض عدد من الحيوانات التي كانت جد منتشرة في هذه الجهات، فالنصوص تزودنا بمعلومات عن الفيلة مثلا التي كانت حتى حدود القرن الثاني من الميلاد، تهدد سكان مدينة سلا(11) (شالة الحالية) وقد اختلف الدارسون(12) في تحديد فصيلة هذه الحيوانات ، فهناك من اعتبرها

أسودا وهناك من جعلها فيلة وفريق ثالث جمع بين الفصيلتين، في حين ذهب فريق رابع إلى تخريج عام يفيد كل الحيوانات العجيبة(13).

إن ما نستفيذه من هذه الوثيقة، هي الوسائل التي باتت روما تعتمدها لاستخلاص الضرائب حتى في الأوقات الحرجة، أو خلال الفترات التي تعاني فيها البلاد من نقص في المحصول، الأمر الذي يترتب عنه عجز السكان عن أداء الضرائب. لقد أدت هذه السياسة إلى استنزاف الثروات الطبيعية للبلاد، وكل ذلك خدمة لعظمة روما، فقد ورد عند ديون كاسيوس(14) أنه كان يروق لكركلا أن يحيط نفسه بالأسود، كما أن الرومان كانوا يحتاجون إلى هذه الحيوانات فيلة كانت أو أسودا في مسارحهم. ومن الأمثلة عن السياسة الجائرة التي اعتمدتها روما في استنزاف ثروات موريطانيا الحيوانية ما ورد عند ديودور الصيقلي من تقتيل ما بين 5000 و6000 أسد في إحدى الاحتفالات بروما(15) وما نستفيده من إشارة بلين حول تهديد جحافل الفيلة لسكان سلا خلال القرن الثاني للميلاد في وقت سيختفي فيه كل أنواع هذه الحيوانات بعد ذلك.

تلك بعض الملاحظات عن السياسة التي نهجتها روما وكذا عواقبها الوخيمة على البلاد.

الهوامش :

1) – Ginette Divitta-Evrard, L'Edit de Banasa : un document exceptionnel, dans Africa romana t.5, 1987, p : 290.

2) — عبارات العربي أو البارتي أو السرماتي ... الواردة في النص المقصود بها الانتصارات التي حققها الإمبراطور على هؤلاء في حروب متعددة.

3) - Thouvenot ®, Une remise d'impots en 216 ap.Jc, dans C.R.A.I , 1946, p : 550.

4) – Ibid , p : 294.

5) – Corbier (M.) , Le discours du prince d'après une inscription de Banasa, dans KTEMA, 1977, p : 215.

6) – Ibid , p : 213.

7) – Guey (J.) , Les éléphants de Caracalla (216 ap-J.c), dans R.E.A. , 1974, p : 262.

8) – Thouvenot (R.), Une remise, p . 556.

9) – Ibid, p : 551.

10) – Ibid, p : 528.

11) – Pline L'Ancien, H.N. , V, 6.

12) – Guey (J.) Les éléphants de Caracalla, op. cit.
Thouvenot (R.) , les lions.

13) – L Akerraz (A.), Brouquier Redee(V.), Lenoir (E.), L'occupation antique de la plaine de Gharb , dans VI colloque international sur l'Afrique du Nord (Paul993) , 1995 , p : 239 – 252.

14) – Dion Cassius, H.R. , LXXIX, 7, 3 – 2.

15) – Diodore, Bibliothèque, XXXIX, 38.

16) – Euzennat (M.), Marion (J.) , Inscriptions antiques du Maroc, Paris, 1982, p : 65.